مجلة أبوليوس
المجلد 08 العدد 01 – جانفي 2021
الصفحات: 124- 135

خراسان أول الفضاءات المكانية في حكايات ألف ليلة وليلة

Khorassan the First Spatial Spaces in the Tales of the Thousand Nights and One Night

محمد عبد الرحمن يونس*

جامعة ابن رشد / هولندا

younesmoon@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2020/10/16 تاريخ القبول: 2020/11/30 تاريخ النشر: 2021/01/31

ملخص البحث:

تشكّل حكايات ألف ليلة وليلة من المدينة محوراً أساساً لوصفها وسردها، ومن خلال هذه الحكايات يقدّم الرواة مدنهم تقديماً جمالياً ومثيراً، وبمزيد من الاحترام والإكبار لتخطيط هذه المدن، ومظاهرها الخارجية والزخرفية وبساتينها المنظّمة وأسواقها التجارية ومعاملاتها، وقصورها الشامخة ولذة العيش فيها، وما يدور فيها من علاقات وتقاليد ودسائس ومؤامرات. وتتعدد المدن والبلدان في ألف ليلة وليلة لتشمل معظم مدن العالم التي عرفها الرواة معرفة شخصيّة، عن طريق معايشتهم لها سكناً أو سفراً إليها، أو سماعاً عنها، أو قراءةً من خلال المصادر التاريخية التي تتحدّث عن أوصافها وأعرافها وقيمها وتشكيلاتها الجغرافية، ببحارها وجزرها، وقلاعها، وأسوارها، سواء أكانت مدناً عربية إسلامية أم فارسية أم أوربية، أم شرق آسيوية.

الكلمات المفتاحية: ألف ليلة وليلة، السرد، المكان، المدينة، الأنساق الثقافية.

Abstract:

The stories of the Thousand Nights and One Night take the city as a basis for depicting and narrating them. Through these stories, the narrators portray the aesthetic and excitement aspects of their cities with more respect and pride to their design, their external and decorative appearances, their organized gardens, their commercial markets, their lofty palaces and the pleasure of living in them. Additionally, they convey what occurs in them in terms of relationships, traditions, intrigues and conspiracies. There are many cities and countries in the Thousand Nights and One Night. They include most of the world cities, whether they are Arab, Islamic, Persian, European, or East Asian, which the narrators knew personally, traveling to them, or just reading or hearing about them.

Keywords: *Thousand Nights and One Night, narration, place, city, cultural patterns.*

* المؤلف المراسل

مدخل:

تشكّل حكايات ألف ليلة وليلة من المدينة محوراً أساساً لوصفها وسردها، ومن خلال هذه الحكايات يقدّم الرواة مدنهم تقديماً جمالياً ومثيراً، وبمزيد من الاحترام والإكبار لتخطيط هذه المدن، ومظاهرها الخارجية والزخرفية وبساتينها المنظّمة وأسواقها التجارية ومعاملاتها، وقصورها الشامخة ولذة العيش فيها، وما يدور فيها من علاقات وتقاليد ودسائس ومؤامرات.

وتتعدد المدن والبلدان في ألف ليلة وليلة لتشمل معظم مدن العالم التي عرفها الرواة معرفة شخصيّة، عن طريق معايشتهم لها سكناً أو سفراً إليها، أو سماعاً عنها، أو قراءةً من خلال المصادر التاريخية التي تتحدّث عن أوصافها وأعرافها وقيمها وتشكيلاتها الجغرافية، ببحارها وجزرها، وقلاعها، وأسوارها، سواء أكانت مدناً عربية إسلامية أم فارسية أم أوربية، أم شرق آسيوية. فمن المدن والبلدان العربية يذكر الرواة صنعاء واليمن، والشام (دمشق)، وحلب، والقدس وعكّا وغزّة وعسقلان، والقاهرة ودمياط والإسكندرية وبلبيس، وبغداد والبصرة والكوفة والموصل، و يذكرون من مدن المغرب الأقصى فاس ومكناس وذلك في حكاية «**جودر ابن التاجر عمر وأخويه** ». ويذكرون بعض البلدان الأوروبية التي يسميها الرواة « بلاد الإفرنجة » بمدنها وأقاليمها، ويذكرون منها فرنسا والنمسا. وعندما يذكر الرواة بلاد الإفرنجة، فإنّهم يعمّمونها على كثير من المدن الأوروبية، من دون أن يذكروا اسماً لهذه المدن، وذلك في حكاية « **عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان** ». ومن مدن تركيا يذكرون « القسطنطينية »، ويصلون إلى إيطاليا ليذكروا مدينة « جنوى » و « البندقية »، في حكاية « **عمر النعمان وولديه** »، ويعرّجون على بلاد السند والهند وعجائبها.

ومن البلدان الشرق آسيوية يذكرون الصين، وهناد[1]، وأحياناً تُطلق الصين على كل المدن الصينية التي يذكرها الرواة من دون تحديد اسم أية مدينة. ومن الحكايات التي تذكر الصين حكاية « **الأحدب وملك الصين** »، وحكاية « **الملك قمر الزمان والملكة بدور** ».

ومن البلدان المتاخمة للبلاد العربيّة الإسلاميّة، يذكر الرواة بلاد فارس « بلاد العجم»، ومن أهم الأقاليم الفارسية التي ترد في الحكايات إقليم « خراسان »، إذ يشير الراوي بهذا الإقليم إلى بلاد فارس كلها، وعندما يصل بقصصه إلى فضاءات فارسية بعيدة لا يعرف اسماً لها، فإنه يسمّيها بالمدينة الخضراء[2]، والأرض البيضاء[3].

ونلاحظ أنّ الرّواة عندما يذكرون المدن العربية الإسلامية، فإنهم يذكرونها مقرونة بأسماء خلفائها وحكّامها، إذ تُذكر بغداد مقرونةً باسم الخليفة هرون الرشيد: « وسافر بها إلى بغداد وكان ذلك في زمن هرون الرشيد ».[4]، وتُذكر مقرونةً أيضاً باسم ولده المأمون[5]. وهناك إشاراتٌ طفيفة إلى محمد الأمين (ابن هرون الرشيد)، وذلك في « **حكاية الحمال والبنات** »: « ثمّ إنّ الخليفة أحضر ولده الأمين بين يديه »[6].

وتُذكر البصرة مقرونة باسم سلطانها محمد سليمان الزيني[7]. ويتزامن ورود الكوفة مقروناً باسم واليها الظالم ــ كما يرى أحد الرواة ــ الحجاج بن يوسف الثقفي[8]، وذلك في حكاية « **نعمة ونعم** ».

وتُذكر دمشق مقرونةً باسم الخلفاء الأمويين، كالخليفة عبد الملك بن مروان[9].وفي حكاية أخرى يذكر أحد الرّواة أن ملك دمشق هو الملك عمر النعمان. يقول في حكاية « **عمر النعمان وولديه** »:

« كان بمدينة دمشق، قبل خلافة عبد الملك بن مروان، ملك يقال له عمر النعمان، وكان من الجبابرة الكبار»[10].

ومن هنا يمكن القول إنّ راوي هذه الحكاية لا يعرف تماماً وبدّقة تاريخ الخلافة الأمويّة، وأسماء الخلفاء الذين تعاقبوا على الدولة الأمويّة، فلا يوجد بين الخلفاء الأمويين خليفة يُدعى « عمر النعمان». وتذكر المصادر التاريخية أن الخليفة السابق لعبد الملك بن مروان هو والده مروان بن الحكم (ت 65 هـ/685 م)[11]. ويبدو أن الرّاوي شكّل هذه الشخصية من تخيّلاته ليتخلّص من الحرج الذي يصيبه، وهو يتحدّث عن مفاسد هذا الملك وجبروته، وانهماكه في نكاح النساء[12]، هو وولده شركان، وبالتالي عن المفاسد والملاهي التي رافقت حياة بعض خلفاء الدولة الأمويّة.

والغريب أنّ رواة ألف ليلة وليلة لا يحتفون بالجزيرة العربية، ولا بمدنها، على الرغم من مركزيتها الإسلامية، إلاّ أنّ أحد الرّواة يذكر الحجاز[13]، ومكّة وجدّة[14]. وتبقى فضاءات الجزيرة العربية فضاءات غير مركزيّة وغير مهمّة في ليالي ألف ليلة وليلة، إذ لا يتوقّف السرد عندها طويلا، ولا يسجّل ملامح حياة شعوبها، وإن ذُكِرت فإنها تُذكر لمجرد كونها طريقاً يمرّ فيه الأبطال من دون توقّف.

ولا نستطيع أن نعرف الأسباب الرئيسة لتجاهل مدن الجزيرة العربية، إلاّ أنّه يمكن القول: إنّ رواة ألف ليلة وليلة يحتقرون البادية والبدو كثيراً، ويرون أنّ البدو هم مجرمون وأشرار و لصوص وخاطفون وقطّاع طرق[15]. وأنّهم يشكّلون الخطر الأكبر على حضارة المدينة العربية الإسلامية في أوج ازدهارها، وبالتالي فإنّهم أهملوا ذكر مدن الجزيرة العربية، باعتبار أنّ القسم الأكبر من أراضي هذه الجزيرة تحكمه علاقات وقيم بدويّة، و أراضيه صحراويّة تفتقر إلى روح المكان الحضاري، وعلاقاته، ودوره في تشكيل أحداث الحكايات، وبالتالي تفتقر إلى العلاقات المدينيّة سلوكاً وقيماً وعاداتٍ وأعرافاً، لكنّ أحد الرّواة يذكر فضاءً مهماً من فضاءات الجزيرة العربية، وهو فضاء الكعبة، باعتباره فضاءً مركزياً دينياً مقدّساً يؤمّه الزوّار من الدول الإسلامية كافة، وذلك في حكاية « **الحشاش مع حريم أحد الأكابر**»[16].

إنّ هذه المدن الآنف ذكرها، هي من أهم المدن المتشكّلة جغرافيّاً على خارطة العالم المعروفة قديماً وحديثاً، والتي عايشها رواة ألف ليلة وليلة، أو سمعوا عنها، أو قرأوا عنها في المصادر التاريخية. ونظراً لأنّ هذه المدن كثيرة جداً ومعروفة، وقد احتلّت مكانةً متميّزةً مرموقةً في عصور التاريخ و لا تزال، فإني سأكتفي بعرض وصفٍ لبلاد خراسان، لأنّها من أهم البلاد الإسلاميّة التي ذكرتها الليالي، منطلقاً من نصّ الليالي نفسه، ومعتمداً أحياناً بعض الأدبيات التاريخيّة التي ذكرت هذه البلاد وأرّخت لها.

1 ـ خراسان

آ ـ لمحة تاريخية عن خراسان.

تشكّل بلاد خراسان التي يذكرها رواة ألف ليلة وليلة مجموعة أقاليم شاسعة، تضمّ مدناً عديدة تقع « أول حدودها ممّا يلي العراق أزاذْوار قصبة جوين وبيهق، وآخر حدودها ممّا يلي الهند طخارستان وغزْنة وسجستان وكرمان »[17].

ودخلت خراسان تحت جناح الدولة الإسلاميّة بعد أن سار جيشان عربيان نحوها في وقت واحد، « ففي سنة 29 هـ/649 م سارت قوّة من الكوفة بقيادة واليها سعد بن العاص متّخذة طريق همذان والريّ قاصدة جرجان وخراسان كما خرجت في الوقت نفسه قوّة من البصرة بقيادة أميرها عبد الله بن

عامر (...) وعلى يد هذين القائدين تم الاستيلاء على نيسابور وسرخس وطوس وهراة ومرو (...) ولمّا وليَ زياد بن أبي سفيان البصرة قسم خراسان إلى أربعة أرباع سمّي كل منها باسم المدينة الرئيسة فيه وهي نيسابور وبلخ ومرو وهراة »[18].

وتذكر المصادر القديمة أنّ أهل خراسان كانوا في إسلامهم أنقياء السريرة، بعيدين عن الفساد، فعندما أراد محمد بن علي بن عبد الله بن العبّاس توجيه دعاته إلى أمصار الدولة البعيدة، قال لهم: « عليكم بأهل خراسان فإن هناك العدد الكثير والجَلَد الظاهر وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تتقسّمها الأهواء ولم تتوزّعها النِّحل ولم يقدم عليهم فساد »[19].

ويصف أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة[20] (ت 322 هـ/934 م) أهل خراسان بأنهم أنصار الدولة ويلحّ على ذكائهم. أمّا ابن الفقيه[21] (أحمد بن محمد بن إسحق بن إبراهيم الهمذاني (ت 340 هـ/951 م) فإنّه يجعل خراسان حامية الحقّ ودين الله .

ولخراسان أهمّية علمية ومعرفية كبيرة عبر التاريخ، فالخراسانيون هم فرسان العلم وساداته وأعيانه[22].ويرى المقدسي[23] (محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء، ت 380 هـ/947م) أنّ مدن خراسان: مرو ونيسابور وبلخ وبخارى وسمرقند، كانت عبر تاريخها منابر للثقافة والأخلاق.

وقد أسهم الخراسانيون إلى حد كبير في القضاء على الدولة الأمويّة، لأنّ الدّعوة العباسيّة اتّخذت من خراسان مسرحاً لها، وحضّت الخراسانيين على الأمويين، واتّهمت الأمويين بالخروج عن طريق الحقّ والعدل التي أوصى بها الإسلام، وأشارت إلى تفريق الأمويين بين المسلمين عرباً وموالي، وإلى إحسانهم للعرب وإساءتهم للموالي، وقالت بأنّ الأمويين اعتدوا على أصحاب الحقّ الشرعيّ في الخلافة، وهذه الأمور لاقت قبولاً لدى الخراسانيين، فما كان منهم إلا ان أعدّوا العدّة، ونظّموا الجيوش، وقادوا الحملات ضد الأمويين[24].

وشهدت خراسان، عبر تاريخها، ثراءً واسعاً ورفاهيةً في العيش، فهي بلاد الحجارة الكريمة كالفيروز واللازورد، والسَبَج (الخرز الأسود)، والياقوت، والخزف الأبيض المصنوع من مادة سهلة المعالجة إلى حدّ جعلها تنافس الزجاج[25]. وهي بلاد المعادن، كالملح والنحاس والحديد والذهب[26].

وقد شكّلت خراسان في التاريخ محطّةً تجاريةً مهمّةً، كانت تعجّ بالمسافرين والقوافل، وأكثر مدن خراسان التي كانت تعجّ بهؤلاء، هي مدينة نيسابور في أقصى الشمال باعتبارها عقدة طرق خراسان الكبرى[27].

وقد وعى الشعراء قديماً أهميّة خراسان، فها هو أحدهم يقول فيها:

والناس فارس والإقليم بابل وال
إسلام مكّة والدنيا
خراسان[28]

ويذكر رواة ألف ليلة وليلة ـ بالإضافة إلى بلاد خراسان . أهمّ مدينة من مدنها، وهي مدينة سمرقند. وسمرقند هي من مدن الإقليم الرابع من أقاليم بلاد خراسان الشاسعة[29]، وهي تقع« في بلاد ما وراء النهر حسب التعابير التاريخية، وهي اليوم ثاني مدن جمهورية أوزبكستان (...) وكانت من المدن الإسلامية الهامّة في الجناح الشرقي لديار الإسلام. وكانت سمرقند عاصمة بلاد ما وراء النهر لمدة خمسة قرون منذ عهد السامانيين[30] إلى عهد التيموريين[31].وقد أطلق عليها الرّحالة العرب اسم « الياقوتة » الراقدة على ضفاف نهر زارافشان. وهي المنافسة التاريخية

لبخارى، وهي العاصمة الرّائدة التي أعدّها تيمور لنك لتحتلّ الصدارة في عهده.»[32].

ويصفها ياقوت الحموي[33] (ت 626 هـ/1228 م) قائلاً: « إنّ سمرقند من بناء الاسكندر. واستدارة حائطها اثنا عشر فرسخاً. وفيها بساتين ومزارع وأرحاء. ولها اثنا عشر باباً، من الباب إلى الباب فرسخ. وعلى أعلى السور آزاج[34] وأبرجة للحرب. والأبواب الاثنا عشر من حديد. وبين كل بابين منزل للنوّاب. ». ويذكر أنّها تُروى من ماء نهرٍ يجري في وسطها، وعلى هذا النهر تقع البساتين الكثيرة « وليس من سكّة ولا دار إلاّ وبها ماءٌ جارٍ إلاّ القليل. وقلّما تخلو دار من بستان حتى إنّك إذا صعدت قهندزها[35] لا ترى أبنية المدينة لاستتارها عنك بالبساتين والأشجار. »[36].وتضمّ هذه المدينة عدة مدن فرعيّة أخرى، ومن أهمّها: كرمانية ودبوسيّة وأشروسنة والشاش ونخشب وبناكث[37].

ويذكر المؤرّخون هذه المدينة بالثناء عليها، ويبرزون الوجه الجماليّ لطبيعتها وسكانها، فابن حوقل[38] (محمد بن حوقل البغدادي الموصلّي، ت 367 هـ/977 م)، أثنى على جنانها. « واعتبرها بستان متعة ». وقال آخرون عنها: « ليس في الأرض مدينة أنزه ولا أطيب ولا أحسن (...) من سمرقند »[39]

أمّا الاصطخري[40] (إبراهيم بن محمد الفارسي الكرخي، ت 346 هـ/957 م)، فقد وصف أهلها قائلا: « وأهلها يرجعون إلى جمال بارع ورزانة. وهم من الإفراط في إظهار المروّة وتكلّف القيام على أنفسهم ما يزيدون على سائر بلاد خراسان، حتى يجحف ذلك بأموالهم.» .

ويذكر ياقوت الحموي[41] أن أنس بن مالك (ت 93 هـ/712 م) ذكر مدينة بخراسان خلف نهر جيحون، تُعرف بسمرقند، وسمّاها المحفوظة، تأسيسا على حديث لرسول الله (ص). وتبدو هذه المدينة، من خلال حديث رسول الله عنها، جنّة أرضيّة، مشكّلة وفقاً لأحلام المسلمين، وتخيّلاتهم الأسطورية. يقول أنس بن مالك ناقلا ما قاله رسول الله (ص) عن مدينة سمرقند:

« أخبرني حبيبي رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، أنّ مدينة بخراسان خلف النهر تُدعى المحفوظة (...) و خلف المدينة روضة من رياض الجنّة، وخارج المدينة ماء حلوٌ عذبٌ من شرب منه شرب من ماء الجنّة ومن اغتسل فيه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمّه، وخارج المدينة على ثلاثة فراسخ ملائكةٌ يطوفون يحرسون رساتيقها ويدعون الله بالذكر لهم،وخلف هؤلاء الملائكة وادٍ فيه حيّات وحيّة تخرج على صفة الآدميّين تنادي يا رحمن الدنيا و رحيم الآخرة ارحم هذه المدينة المحفوظة،ومن تعبّد فيها ليلة تقبّل الله منه عبادة سبعين سنة، ومن صام فيها يوماً فكأنّما صام الدهر، ومن أطعم فيها مسكيناً لا يدخل منزله فقرٌ أبداً، ومن مات في هذه المدينة فكأنّما مات في السماء السابعة ويُحْشَر يوم القيامة مع الملائكة في الجنّة.».

ب ـ خراسان أول الفضاءات المكانية في حكايات ألف ليلة وليلة:

تبتدئ حكايات ألف ليلة وليلة من مدينة « سمرقند العجم »، وهي إحدى مدن بلاد خُراسان الشاسعة. ويحكم هذه المدينة ملك من ملوك ساسان، وتصفه مقدّمة الليالي بأنه فارس وبطل، وأنه « ملك البلاد وحكم بالعدل بين العباد، اسمه الملك شهريار (...) وكان ملك سمرقند العجم »[42].

وفي هذه المدينة يكتشف شاه زمان الأخ الأصغر لشهريار، أن زوجة أخيه شهريار ــ لا يذكر الرّاوي اسماً لها ـ تقيم حفلاً عربيديّاً جنسيّاً، أبطاله مجموعة من عبيد قصر أخيه وجواريه، ويقوم

هؤلاء العبيد والجواري مع سيدتهم زوجة شهريار، وعبدها مسعود، بممارسة فعل الجنس، وبشكل جماعي، يقول الرّاوي[43]: « فنظر [شاه زمان] وإذا باب القصر قد فتح وخرج منه عشرون جاريةً وعشرون عبداً، وامرأة أخيه تمشي بينهم، وهي في غاية الحسن والجمال حتى وصلوا إلى فسقية وخلعوا ثيابهم وجلسوا مع بعضهم بعضاً. وإذا بامرأة الملك تقول: يا مسعود، فجاءها عبدٌ أسود فعانقها وعانقته وواقعها. وكذلك فعل باقي العبيد بالجواري، ولم يزالوا حتى ولّى النهار». عندها ينقل شاه زمان ما شاهده إلى أخيه شهريار، فيوهم شهريار أهل بيته وعبيده وجواريه بأنّه مسافر، ثم يختفي متنكّرا وراء نافذة مطلّة على بستانه، مراقباً ما تفعله زوجته وعبيده وجواريه من انتهاكات جنسية لحرمة قصره، ويكتشف أنّ كلّ ما قاله أخوه شاه زمان صحيح، فيطير عقله[44]، ويقرر أن يسافر مبتعدا عن سمرقند، وبصحبته أخوه شاه زمان، الذي كان هو الآخر مسافراً من قصره، قاصداً أخاه شهريار، وعند « نصف الليل تذكّر حاجةً نسيها في قصره، فرجع ودخل قصره فوجد زوجته راقدةً في فراشه معانقةً عبداً أسود من العبيد، فاسودّت الدنيا في وجهه، وسلّ سيفه وضرب الاثنين فقتلهما في الفراش »[45].

ويقرر شهريار وشاه زمان أن يرتحلا عن مدينتهما سمرقند[46]، لينظرا في أقاليم الأرض، ما إذا كان جرى لأحد من الناس مثلما جرى لهما، وبالمصادفة يعاينان فجور امرأة، كان قد خطفها عفريت، وسجنها في صندوق، وأقفله بسبعة أقفال، ومع ذلك فقد تمرّدت عليه، وضاجعت خمسمائة وسبعين رجلاً، انتقاماً منه، وأخذت خواتمهم، عندها تنكشف لهما الحقيقة واضحةً، على لسان الصبيّة المخطوفة، التي تؤكّد أنّ المرأة إذا ما أرادت الخيانة، فإنّه لا يردعها أي رادعٍ، مهما كان قوياً. تقول المرأة: « إنّ هذا العفريت قد اختطفني ليلة عرسي ثم إنّه وضعني في علبة وجعل العلبة داخل الصندوق ورمى على الصندوق سبعة أقفال وجعلني في قاع البحر العجاج المتلاطم بالأمواج. ولم يعلم أنّ المرأة منّا إذا أرادت أمراً لم يغلبها شيء»[47].

وعند ذلك يرجع شهريار إلى مدينته سمرقند ـ مع أخيه شاه زمان ـ محبطاً ويائساً، ومليئاً بالقناعة التي تؤكّد أنّ النساء جميعهن ماكراتٌ لا وفاء لهنّ، فيقرر أن يقتل زوجته، ويتزوّج كلّ يوم امرأةً جميلةً من نساء مدينته، ثم يقتلها في الليلة نفسها، حتى لا تستطيع خيانته مع أي رجل آخر: « ثم انصرفا من ساعتهما عنها [أي المرأة التي خطفها العفريت]، ورجعا إلى مدينة الملك شهريار ودخلا قصره، ثم إنّه رمى عنق زوجته وكذلك أعناق الجواري والعبيد وصار الملك شهريار كلّما يأخذ بنتاً بكراً يزيل بكارتها ويقتلها من ليلتها »[48]. وعند ذلك تهرب أبكار سمرقند من دمويّة شهريار، فتقرر شهرزاد، ابنة وزيره ـ لا يذكر الرّاوي اسماً لهذا الوزير ـ أن تذهب إلى شهريار راضية الزواج به، وعندما يتزوّجها تطلب أختها دنيازاد منها أن تحكي حكايةً، فتستأذن الملك شهريار فيسمح لها بذلك[49]، فتبدأ شهرزاد بقصّ حكاياتها، ثم تقطعها في ذروة حبكتها، عندما يدركها الصباح، وحتى يتمكن من متابعة حكاياتها، يضطّر لأن يؤجّل قتلها.

وبين الحكاية والحكاية، تبدو شهرزاد راويةً متميّزةً تفوق نساء زمانها معرفةً وأدباً وتاريخاً وقصّاً سحريّاً، لا يمكن مقاومة إغراءات جمالياته، وفضاءاته العامرة بكل ما هو مثير. وتنتهي الحكايات في المدينة نفسها (سمرقند) وقد عاد إلى شهريار وعيه وثقته بالمرأة التي يمكن أن تكون أمّاً فاضلةً، وزوجةً مخلصةً. وما بين الليلة الأولى والأخيرة، يشكّل السرد

لوحات جذّابةً لمدن واقعيّة وتخيّليّة، إذ تُستحضَر المدن الكثيرة التي سمع الرّواة عنها، أو عايشوها، أو تخيّلوها، أو قرأوا عنها في المصادر.

وسمرقند، أو خراسان، كما سيسمّيها الرّواة في ما بعد، انطلاقاً من تسمية الجزء بالكلّ الذي ينتمي إليه، وباعتبار أن سمرقند (الجزء)، أهم مدن هذا الكلّ « خراسان »، فإنّها لن تغيب بعد الحكاية الأولى، بل ستبقى ناميةً مع نمو السرد، وإن كانت ستغيب في بعض الحكايات، فإنّها ستُستحضَر، بشكل قصديٍ أو غير قصديٍ، في حكايات أخرى، لأنّ الرّاوية الرئيسيّة « شهرزاد » تظلُّ في حالة حنينٍ إلى مدينتها، وإن سافر أبطالها إلى دمشق أو بغداد أو القاهرة، فإنّها تجعلهم يمرّون ثانية بخراسان، أو يتذكّرونها، أو يشيرون إليها بنوع من التبجيل والاحترام.

إنّ خراسان تظلّ حلماً جميلاً يصبو إليه الرّواة والأبطال، فهي أول خيط من خيوط السرد، وهي آخر هذه الخيوط، وهي تتموضع على مسار هذا السرد مختفيةً تارةً، ومتداخلةً مع مدن أخرى كثيرة، تارةً أخرى. وفي آخر حكايات ألف ليلة وليلة، تنعم سمرقند وسكانها بملذّات الحياة، بعد أن تكون شهرزاد قد روّضت الوحش المفترس في ذاكرة شهريار التاريخيّة المطعونة بخيانة نساء مدينته، وأعادت إليه ثقته بهاته النساء، من خلال حكاياتها الطويلة الموغلة بعيداً في أعماق الحضارات الإنسانية التي تعاقبت وتزامنت مع حضارة شهريار، وتحديداً حضارته الساسانيّة. وعندما يقرر شهريار أن يعفو عن شهرزاد، يكون بذلك، قد أعتق سمرقند العجم، من سطوته الدمويّة، وأعطى لسكانها الأمان والطمأنينة. يقول الرّاوي[50]: « وشاع السرور في سراية الملك حتى انتشر في المدينة. وكانت ليلة لا تعدّ من الأعمار ولونها أبيض من وجه النهار، وأصبح الملك مسروراً وبالخير مغموراً، فأرسل إلى جميع العسكر فحضروا وخلع على وزيره أبى شهرزاد خلعة سنية جليلة وقال له: سترك الله حيث زوّجتني ابنتك الكريمة التي كانت سبباً لتوبتي عن قتل بنات الناس ».

ونظراً لأهميّة خراسان الكبيرة في رؤية بعض رواة الليالي، المؤدلجين إسلامياً، الطامحين إلى اتساع رقعة الدولة الأمويّة، فإنّه يجب أن تكون تابعة إلى ملك أمويّ مسلم، وهو الملك عمر النعمان[51].

إنّ ليالي ألف ليلة وليلة تُظهر بعض ملوك خراسان في مظهر يتناسب مع صورة هذه البلاد التاريخيّة المسلمة كما وردت في المصادر، ففي حكاية « **التاجر حسن مع الملك محمد ابن سبائك** »، يؤكّد الرّاوي أنّ الملك الخراساني محمد بن سبائك كان يتحلّى بصفات العدل والشجاعة والكرم، وكان مؤمناً برسالةِ الإسلام، ومدافعاً عنها. يقول الرّاوي[52]: « كان في قديم الزمان وسالف العصر والآوان، ملك من ملوك العجم اسمه محمد بن سبائك، وكان يحكم على بلاد خراسان، وكان في كل عام يغزو بلاد الكفار في الهند والسند والصين، والبلاد التي وراء النهر وغير ذلك من العجم وغيرها، وكان ملكاً عادلاً شجاعاً كريماً جواداً ».

و خراسان في حكايات الليالي مركزٌ تجاريّ مهمّ، والتجار فيها أثرياء جداً: « حُكي أنّه كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان، تاجرٌ من التجار في بلاد خراسان اسمه مجد الدين، وله مال كثير وعبيد ومماليك وغلمان »[53].

إنّ بعض أبطال الحكايات لا يرضون بديلاً من خراسان، على الرغم مما تعطيه لهم المدن التي يصلون إليها، ففي حكاية « **علي شار وزمرد الجارية** »، وعندما يختطف برسوم النصراني زمرد الجارية، نجد أنّ الرّاوي يخلّصها منه، ويوصلها إلى مدينة

بعيدة، لا يذكر الرّاوي اسماً لها، إلاّ أنّها « طيبةٌ أمينةٌ بالخير مكينةٌ »[54]. وعندما يشاهدها فرسان المدينة يعيّنونها ملكاً عليهم، وفق عاداتهم التي تعيّن أول شخص قادم إلى مدينتهم ملكاً عليها، في حال وفاة ملكهم[55]. وتصبح زمرد ملكة على المدينة متوّجة بالمجد والسلطة، لكنّ الرّاوي يصرّ على إرجاعها إلى خراسان بلاد زوجها علي شار، وفاءً من هذه المرأة لهذه البلاد الجميلة، ولزوجها القاطن في هذه البلاد. فكما تبدأ رحلة الليالي من سمرقند العجم (إحدى مدن خراسان)، وتنتهي بها، فإنّ رحلة علي شار الطويلة صوب بلدان العالم تبدأ من خراسان، وتنتهي هي الأخرى بخراسان، يقول الرّاوي: « ولم تزل مسافرة [أي زمرّد زوجة علي شار] إلى أن وصلت إلى بلد علي شار، ودخل [علي شار] منزله وأعطى وتصدّق ووهب، ورُزِق منها الأولاد وعاشا في أحسن المسرّات إلى أن أتاهما هادم اللذّات ومفرّق الجماعات»[56].

إنّ خراسان في بعض الحكايات محطّة، يعبر بها أبطال القصة الرئيسيّون صوب أهدافهم. وهم مضطرّون لأن يمرّوا بهذه البلاد المركزيّة قبل أن يصلوا إلى أهدافهم، ففي حكاية « **بلوقيا وجانشاه** »، التي تضمّنتها حكاية « **الحكيم دانيال وولده حاسب كريم وملكة الحيّات** »، نجد أن الرّاوي يجبر الملك « جانشاه » على المرور أولاً بـ « خراسان »، قبل أن يصل إلى هدفه الأخير، وهو لقاء محبوبته في قلعة « جوهر تكني »: « بلغني أيها الملك السعيد أنّ جانشاه مازال مسافراً حتى وصل إلى بلاد خرسان.»[57]، وكأنّ بلوغ الأهداف الكبيرة في حياة الشخوص الرئيسيّة لا يتحقّق إلا بالمرور بالبلاد المركز. على أنّ خراسان لن تظلّ فضاءً مركزياً في الليالي جميعها، لأنّها ستفسح المجال لمدن أخرى لأن تكون مركزاً، وبخاصة في الحكايات التي تتزامن مع الدولتين: الأمويّة والعباسيّة، وسنجد أن بغداد والقاهرة، وأحياناً دمشق، تصبح مدناً مركزيّة في حركة الوحدات السردية، وانتقال الشخوص، وتشكّل الأحداث.

ونظراً لأهمّية خراسان باعتبارها أولى حلقات السرد، وأوّل الفضاءات المكانيّة التي تتحرك فيها الشخوص، ونظراً لأهمّيتها العلمية والمعرفيّة عبر التاريخ، فقد رأى رواة ألف ليلة وليلة، أنّ الملوك مهما كانوا عظماء وأقوياء بجيوشهم الجرّارة، فإنّ هذه العظمة لا تكتمل إلاّ بالعلاقة مع خراسان المركزيّة. فالملك طيغموس في حكاية « **بلوقيا وجانشاه** »، هو ملك مليءٌ بالعظمة والأبّهة لأنّه « كان يحكم على بلاد كابل وعلى بني شهلان، وهم عشرة آلاف بهلوان، كلّ بهلوان منهم يحكم على مائة مدينة ومائة قلعة بأسوارها، وكان يحكم على سبعة سلاطين ويُحمَل له المال من المشرق إلى المغرب، وكان عادلاً في حكمه. وقد أعطاه الله تعالى كلّ هذا ومنّ عليه بذلك الملك العظيم »[58]، لكنّ عظمة هذا الملك في حياته ومماته، لن تكتمل إلاّ بولد ذكر « ليخلفه في ملكه بعد موته »[59].

وهذا الولد لن يكون إلاّ بعد زواج الملك طيغموس من بنت ملك خراسان، كما يقرّر الرّاوي الذي يستدعي المنجّمين ليؤكّدوا أهمية خراسان، وأهميّة نسائها. يقول الرّاوي:

« فاتّفق أنّه طلب العلماء والمنجّمين والحكماء وأرباب المعرفة والتقويم يوماً من الأيام، وقال لهم: انظروا طالعي وهل يرزقني الله في عمري ولداً ذكراً فيخلفني في ملكي، ففتح المنجّمون الكتب وحسبوا طالعه وناظره من الكواكب، ثم قالوا له: اعلم أيّها الملك أنك تُرزق ولداً ذكراً ولا يكون ذلك الولد إلاّ من بنت ملك خراسان »[60].

إنّ الانتماء إلى خراسان والزواج بإحدى نسائها ـ وبخاصة ابنة ملكها ـ يعني بالنسبة للملك طيغموس، زيادة في السطوة والمنفعة، لأنّها تشكّل مركزاً استراتيجياً وحضارياً مرموقاً في إيديولوجيا راوي الحكاية، وبالزواج بإحدى أميرات هذا المركز الحضاري المعرفي، فإنّ قيمة الشخصية ومكانتها تزداد بين قومها، والأقوام المجاورة لها.

ويشير الرّاوي في حكاية أخرى إلى أنّ نساء إحدى مدن أقاليم خراسان، وهي مدينة بخارى[61] التي تقع في الإقليم الرابع من أقاليم[62] خراسان، من أجمل النساء وأكثرهنّ خلقاً وديناً. يقول[63] « ويُحكى أنّه كان بمدينة بخارى رجل سقّاء يحمل الماء إلى دار صانع(...) وكان لذلك الصانع زوجة في غاية الحسن والجمال والبهاء والكمال، موصوفة بالديانة والحفظ والصيانة ».

وفي بعض المواضع لا يشير الرّواة إلى اسم خراسان تحديداً، بل تصبح خراسان عندهم هي بلاد العجم، ويبدو أنّ هذه التسمية مقبولة، إذا أخذنا بتحديدات ياقوت الحموي،[64] إذ يرى أنّ خراسان تشتمل « على أمّهات من البلاد مثل نيسابور وهراة ومَرْو (...) وبلخ وطالقان ونسا وأبيورد وسرخس ».

وإذا أخذنا بخارطة ياقوت الحموي[65] التي ترى أنّ أرض فارس كانت « قديماً قبل الإسلام ما بين نهر بلخ إلى منطقة أذربيجان وأرمينية الفارسيّة إلى الفرات. »، فإنّه يمكن أن نقول إنّ نهر مدينة بلخ، المدينة التي تنتمي إلى بلاد خراسان، هو أحد حدود الدولة الفارسيّة، ومن هنا فلا عجب أن تمتدّ خراسان في الليالي، لتشمل فارس « بلاد العجم »، باعتبار فارس متاخمة لخراسان، هذا إذا أخذنا بمنطق رواة الليالي ورغبتهم في أن تتوسّع البلدان والمدن التي يعجبون بها، ويتعاطفون مع أبطالها لتطوي مدناً أخرى تحت جناحها.

ولا يبدو رواة ألف ليلة وليلة عارفين تمام المعرفة بخارطة العالم الجغرافيّة، ومدنه ومواقعها الصحيحة، فهم قد قرأوا ما بين أيديهم من أخبار المدن وعلاقاتها، أو سمعوا ما نقله الرّحالة من أخبار المدن وعجائبها، وشكّلوا من هذه الأخبار سرد حكاياتهم، ووضعوا على خارطة السرد هذه المدن التي قرأوا أو سمعوا عنها، أو تخيّلوها في ما بعد،ولا يعني أنّهم كانوا عارفين تماماً بالمواقع الصحيحة المتوضعة على خارطة العالم الجغرافيّة، فـ « كلّما بَعُد الوطن عن النفوذ الإسلامي وجدنا عدم التحديد والغموض والتعميم في ذكر البلدان. والمدن تصبح خيالاً وأسماءً مخترعة. فكل أجزاء الهند ومدنها عند القاص الهند ليس غير والصين كذلك. فإذا بعدنا شرقاً كانت جزائر الخالدات وجزائر الكافور وجزيرة واق الواق وإذا بعدنا غرباً عن صعيد مصر فبلاد المغرب ثم مدينة النحاس ومدينة فاس ومكناس »[66].

وتبقى المدن الواقعيّة نفسها، التي عرفها رواة الليالي، مزيجاً من التخيّل والواقع، إذ يضفي هؤلاء الرّواة على ملوكها أبّهةً وعظمةً أسطوريةً، وهذه العظمة هي في الأساس تؤكّد عظمة المدينة أو البلاد وعراقتها، فلا يمكن مثلاً أن تكون بلاد العجم المتاخمة لبلاد خراسان العظيمة ـــ والتي تبدو أنّها امتداد لبلاد خراسان في مخيّلة الرّاوي أو جزء منها ـ محكومة إلاّ بملك قوي، محاط بكلّ أنواع الهيبة والعظمة. يقول الرّاوي عن ملك العجم: « وكان يُقال له الملك كرزدان ملك العجم، وقد ملك الأقاليم السبعة وكان في خدمته مائة سلطان يجلسون على كراسي من الذّهب الأحمر، وعشرة آلاف بهلوان كلّ

بهلوان تحت يده مائة نائب، ومائة جلاّد وبأيديهم السيوف »[67].

وهنا لا يمكننا أن نضع تصوّراً جغرافياً دقيقاً لهذه الأقاليم السبعة التي يحكمها الملك كرزدان، إلاّ إذا اعتبرنا أنّ هذا الملك هو ملك ملوك الدنيا، وأنّ هذه الأقاليم السبعة التي يحكمها هذا الملك هي الدنيا بأسرها. ولأنّ الرّاوي يريد أن يعظّم ملك « العجم »، إلى درجة لا يصل إليها أي ملك آخر، فقد أضفى عليه هالة أسطورية، وأحاطه بالمنعة والقوة التي لا تقهر، وجعله حاكماً على الأقاليم السبعة. وبالعودة إلى تحديدات ياقوت الحموي لمعالم الكرة الأرضيّة، نرى أنّ هذه الأقاليم السبعة، هي كل المدن المأهولة على سطح الأرض، فالأرض كما يراها ياقوت الحموي[68] « ثلاثة أرباعها مغمورة بالماء، والربع الباقي مكشوف، والمعمورة هي المسكون من هذا الرّبع المكشوف ثلثه وثلث عُشْره، والباقي خراب وهذا المقدار من الرّبع المسكون مساحته ثلاثة وثلاثون ألف ألف ومئة وخمسون ألف ميل، وهذا العمران هو ما بين خط الاستواء إلى القطب الشمالي، وينقسم إلى سبعة أقاليم ». ولا نستغرب أن تكون بلاد العجم في الليالي، هي نفسها سمرقند العجم، وأنّ الملك كرزدان، ملك العجم هو الصورة النديّة الأخرى للملك شهريار ملك سمرقند العجم، وما الاختلافات في التسمية إلاّ محاولة من الرّواة لتشكيل أحداثٍ جديدةٍ، تشمل مدناً وفضاءات متشعبة ونامية.

ونظراً لعظمة البلاد المركزيّة « خراسان » في ذاكرة الرّواة، فقد نقلوها معهم إلى أبعد فضاءات المدن الأسطورية والتخيّليّة، وتخيّلوا أنّ سكان أبعد مدينة وُجِدت في الأرض يعرفون خراسان، وقد سمعوا عن عظمة ملوكها وتعميرهم الأرض، وسيادتهم عليها. ويذكر الرّاوي أن الأمير موسى بن نصير، عندما وصل إلى مدينة النحاس الأسطوريّة، لجلب قماقمها

الهوامش والإحالات:

(1) - ألف ليلة وليلة، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، دون تاريخ، الجزء الثالث، ص 20.

(2) - ألف ليلة وليلة، 1 / 410.

(3) - م ن، 1 / 411.

(4) - م ن، 1 / 217.

(5) - م ن، 3 / 71.

(6) - م ن، 1 / 88.

(7) - م ن، 1 / 183.

(8) - م ن، 2 / 325.

(9) - م ن، 2 / 328.

(10) - م ن، 1 / 242.

(11) - الذّهبي، شمس الدين أبو عبد الله: دول الإسلام، دون محقق، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، طبعة 1985، ص39.

(12) - ألف ليلة وليلة، 2 / 243.

(13) – م ن، 1 / 242 ؛ 4 / 141، 445.

(14) – م ن، 4 / 281، 79.

(15) – يقول أحد الرواة واصفاً بدويّاً مجرماً: "فأخرج البدويّ الجبّار من حزامه سكّيناً عريضةً لو نزلت على رقبة جمل لقطعتها من الوريد إلى الوريد، و أخذها في يده اليمنى و تقدّم إلى أخي المسكين و قطع بها شفتيه". [م ن، 180/1].

- ويصف راوٍ آخر أحد البدو بأنّه قليل العقل و جلف يابس الرأس و مجنون. [م ن، 294/1].

- وها هو أحد الرواة يدفع بدويّاً ليصف نفسه: "اعلموا أنّي رجل بدويّ أقف في الطريق لأخطف الصغار و البنات الأبكار و أبيعهم للتجار (...) وأغراني الشيطان (...) فاتفقت على جمع أوباش العرب من البدو، لأجل نهب الأموال و قطع الطريق على التجار". [م ن، 121/2].

- وها هو التاجر شمس الدين يُحذّر ولده علاء الدين من البدو قطّاع الطرق قائلاً: "ولكن يا ولدي أخاف عليك من غابة في طريقك تُسمّى غابة الأسد، و وادٍ هناك يقال له وادي الكلاب، فإنّهما تروح فيهما الأرواح بغير سماع. فقال له: لماذا يا والدي؟ فقال: من بدوي قاطع الطريق يُقال له عجلان". [م ن، 355/2]. إلى غير ذلك من الشواهد الكثيرة التي تدين البدو.

(16) - م ن، 2 / 421.

(17) - ياقوت، الحموي: معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، طبعة 1979 م/ 1399 هـ، الجزء الثاني، ص350.

(18) – زيادة، د. نقولا: مشرقيّات في صلات التجارة والفكر، دار رياض الريس للكتب والنشر، بيروت / لندن، الطبعة الأولى

أيلول / سبتمبر، 1998م، ص 193.

(19) - ياقوت، الحموي: معجم البلدان، 2 / 352.

(20) - عن/ ميكيل، أندريه: جغرافية دار الإسلام حتى منتصف القرن الحادي عشر. الأعمال والأيام، ترجمة إبراهيم خوري،

منشورات وزارة الثقافة، دمشق، طبعة 1995 م، الجزء الرابع، القسم الأول والثاني، ص96.

(21) - عن/ م ن، ص 197.

(22) - ياقوت، الحموي: معجم البلدان، 2 / 253.

(23) - عن / ميكيل، أندريه: جغرافية دار الإسلام البشرية . الأعمال والأيام، الجزء الرابع، تتمة القسم الثاني والقسم الثالث،

ص469 .

(24) - زيادة، د. نقولا: مشرقيات في صلات التجارة والفكر، ص 148 . 149 .

(25) – ميكيل، أندريه: جغرافية دار الإسلام حتى منتصف القرن الحادي عشر، الجزء الرابع، القسم الأول والثاني، ص301 .

(26) - م ن، ص 322 .

(27) – ميكيل، أندريه: جغرافيّة دار الإسلام حتى منتصف القرن الحادي عشر، تتمة القسم الثاني والقسم الثالث، ص 345 .

(28) - عن / معجم البلدان، 2 / 353.

(29) - م ن، 3 / 247.

(30) - السامانيّون: سلالة حكمت ما وراء النهر وبخارى وسمرقند (261 – 390هـ / 874 – 999 م). أسسها سامان خُداه

وأصبح حفدته الأربعة عمالاً للمأمون العباسي على سمرقند وفرغانة وهراة وشاش. اشتهر بينهم نصر الثاني ونوح الأول.

ازدهرت الحضارة في عهدهم فنبغ فيهم الفردوسي والرازي وابن سينا. قضى عليهم الغزنيّون.

- العلايلي، عبد الله، وآخرون: المنجد في الأعلام، دار المشرق، بيروت، الطبعة العاشرة، 5 نيسان، 1980 م، ص 346.

(31) - التيموريّون: هم بنو تيمور لنك، وفي الخصوص أمراء أسرته الذين تولّوا الحكم في بلاد إيران وأسيا الوسطى في القرن

الخامس عشر الميلادي. انقسمت دولتهم إلى فرعين رئيسيين: ميرانشاه في الغرب وشاهرخ في الشرق (خراسان وما وراء النهر).

- م ن، ص 200.

(32) - حلاّق، د. حسان: مدن وشعوب إسلامية، دار الراتب الجامعية، بيروت، الطبعة الأولى، آذار / مارس، 1992م، الجزء الرابع،

ص 345.

(33) - معجم البلدان، 3 / 247.

(34) - الآزاج: مفردها الأزَج، وهو البيت الذي يبنى طولا.

- معلوف، لويس: المنجد في اللغة، مادة: ازج، ص 9 .

(35) - القهندز: القلعة .

(36) - معجم البدان، 3 / 248 .

(37) - م ن، 3 / 248.

[38] - عن / ميكيل، أندريه: جغرافية دار الإسلام البشرية حتى منتصف القرن الحادي عشر، تتمة القسم الثاني والثالث، ص528.

[39] - معجم البلدان، 3 / 248.

[40] - عن / زيادة، د. نقولا: مشرقيّات في صلات التجارة والفكر، ص 204.

[41] - معجم البلدان، 3 / 249.

[42] - ألف ليلة وليلة، 1 / 13.

[43] - م ن، 1 / 13 . 14.

[44] – م ن، 1 / 14.

[45] - م ن، 1 / 13.

[46] - م ن، 1 / 14.

[47] - ألف ليلة وليلة، 1 / 15.

[48] - م ن، 1 / 15.

[49] - م ن، 1 / 16.

[50] - ألف ليلة وليلة، 4 / 447.

[51] – م ن، 1 / 293.

[52] - م ن، 4 / 178.

[53] – م ن، 3 / 23. (حكاية علي شار وزمرد الجارية).

[54] – ألف ليلة وليلة، 3 / 42.

[55] - م ن، 3 / 42.

[56] - م ن، 3 / 57.

[57] - م ن، 3 / 365 .

[58] - ألف ليلة وليلة، 3 / 321.

[59] - م ن، 3 / 321.

[60] - م ن، 3 / 321.

[61] - تشغل بخارى واحة واسعة في ما وراء النهر. وهي مدينة إيرانية قديمة كان التجار الصينيون يسمونها " بو. هو ". وقد كانت على طريق الحرير البري. وكانت بخارى مركزاً بوذياً كبيراً، وبعد الفتح العربي أصبحت واحداً من المراكز العلمية الكبرى في المشرق الإسلامي. ومن علمائها الكبار البخاري أحد كبار جامعي الحديث (صحيح البخاري)وكانت بخارى عاصمة السامانيين. وقد عمل السامانيون على تزيين المدينة بالأبنية الجميلة وعلى تنشيط التجارة. وكان بلاطهم يرعى أهل العلم والأدب.

- زيادة، د. نقولا: مشرقيات في صلات التجارة والفكر، ص 233-234.

[62] - معجم البلدان، 1 / 353.

[63] - ألف ليلة وليلة، 3 / 158.

[64] - معجم البلدان، 2 / 350.

[65] - م ن، 4 / 227.

[66] - القلماوي، د. سهير: ألف ليلة وليلة، دار المعارف، القاهرة، طبعة 1966 م، ص 264.

[67] - ألف ليلة وليلة، 3 / 386.

[68] - معجم البلدان، 1 / 25.